(إبراهيم وجعل النار بردا وسلاما عليه)

-جوابا لسؤال من السيد على نصوح الطاهر من نابلس-

قال تعالى في سورة الأنبياء ٦٨ (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين.

قد عرفت سابقا أنني كنت سئلت ثلاثة أسئلة من السيد على نصوح الطاهر النابلسي وإن هذا السائل طلب مني أن يكون الجواب منطقيا معقولا. أما السؤال الأول فقد كان عن ولادة عيسى المسيح من غير أب وأما الثاني فقد كان عن نوم أهل الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، وقد ذكرت جواب كل من هذين السؤالين في محله، أما السؤال الثالث وهو (كيف نجا إبراهيم من الحرق بعد أن ألقي في الحريق الكبير الذي أوقده له النمزذ) فإني سأذكر جوابه هنا فأقول:-

"ما قاله المفسرون في ذلك"

قال المفسرون في معنى هذه الآية (قال مقاتل أن إبراهيم عليه السلام لما دعا قومه إلى التوحيد بالله تعالى وإلى ترك آلهتهم غضبوا منه إكراما لآلهتهم وقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم فجمعوا الحطب على الدواب مدة أربعين يوما حتى إن المرأة لو مرضت قالت إن عافاني الله لأجمعن حطبا لإبراهيم، أشعلوا النار حتى اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصاه لاحترق، ثم قيدوا إبراهيم بالقيود في رجليه، وبالأغلال في يديه ووضعوه في المنجنيق ورموه في هذه النار فصاحت السموات والأرض ومن فيها من الملائكة إلا الثقلين صيحة واحدة أي ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم، وأنه يحترق فيك، فأذن لنا بنصرته فقال سبحانه أن استغاث بأحدكم فأغيثوه، وإن لم يدعو غيري فأنا أعلم به، وأنا وليه فخلوا بيني وبينه. وكانوا لما أرادوا إلقاءه في النار فجاءه ملك الرياح فقال إن شئت طيرت النار في الهواء فقال إبراهيم لا حاجة بي إليك، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض ليس فيها من يعبدك غيري أنت حسبي ونعم الوكيل ثم جاءه جبريل وقال له هل لك حاجة قال أما إليك فلا، قال فاسأل الله قال حسبي من سؤالي علمه بحالي فقال الله تعالى (يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) قال مجاهد لو لم يتبع الله قوله (بردا) بقوله (سلاما) لمات إبراهيم من بردها. وقال ولم يبق يومئذ في الدنيا نار إلا طفئت قال السدى فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم وأقعدوه في الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه إلا وثاقه. وقال المنهال. إن إبراهيم مكث في النار أربعين يوما وقيل خمسين يوما فقال إبراهيم ما كنت أياما أطيب عيشا مني إذ كنت في النار. وقال ابن إسحاق: بعث الله ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد إلى جنبه يؤنسه وآتاه جبريل بقميص من حرير الجنة وقال إبراهيم إن ربك يقول أما علمت أن النار لا تضر أحبابي ثم نظر نمروذ من صرح له واشرف على إبراهيم فرآه جالسا في روضة ورأى الملك قاعدا إلى جنبه وليس حوله نار تحرق الحطب فناداه نمروذ يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم. قال قم فاخرج فقام يمشي حتى خرج منها فلما خرج قال له نمزوذ من الرجل الذي رأيته معك في صورتك قال ذلك ملك الظل أرسله ربي ليؤنسني فيها فقال نمروذ إني مقرب إلى ربك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فإني ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال إبراهيم لا يقبل الله منك ما دمت على دينك فقال نمروذ لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له ثم ذبحها وكف عن إبراهيم.

وقد روى بعض المفسرين هذه القصة على وجه آخر فقال إنهم بنوا لإبراهيم بنيانا والقوه فيه ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ثم أطبقوا عليه ثم فتحوا عليه في الغد، فإذا هو غير محترق وإنما يعرق عرقا فقط فقال لهم هاران أو لوط إن النار لم تحرقه لأنه سحرها، ولكن اجعلوه على شيء وأوقدوه تحته فإن الدخان يقتله فعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته فطارت شرارة فوقع على أبي لوط فأحرقته.

وقال أبو مسلم الأصفهاني في تفسير قوله تعالى (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما) أي أن الله قد جعلها بردا وسلاما بدون كلام لها لأن النار جماد لا يصح خطابها. ولكن الأكثرون على أن الله قد خاطبها فعلا.

واختلف المفسرون في كيفية جعل النار لا تحرق إبراهيم على ثلاث أقوال فقال بعضهم إن الله تعالى قد أزال عنها ما فيها من الحرارة والإحراق وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق. وقال بعضهم إن الله خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعه من وصول أذى النار إليه كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة أو كما ركب بنية النعامة حيث لا يضرها ابتلاع الحديد المحمي بالنار أو كما جعل بدن السمندل لا يضره المكث في النار. وقال بعضهم انه تعالى قد جعل بين إبراهيم وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه، قال المحققون والقول الأول هو الصحيح لأنه الموافق وظاهر قوله تعالى (يا نار كوني بردا) أي أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها لا أن النار بقيت كما كانت. هذا حاصل ما قاله المفسرون في تفسير هذه الآيات.

(ما أفهمه في ذلك وأدلتي عليه)

أقول إني افهم في هذه الآية معنى آخر: وهو أن المراد من النار التي حرقوا بها إبراهيم هي نار التضييق عليه، ونار الشدة والآلام والعذاب والمشتقات التي لاقاها من قومه حينما قام بدعوتهم إلى توحيد الله تعالى وترك آلهتهم فإنهم آذوه إيذاء شديدا وحرقوه بنار عذابهم تحريقا ولكن الله سبحانه وتعالى قد جعل هذا العذاب سهلا عليه وأقدره على تحمله فكان عليه بردا وسلاما، أي سهلا لأنه كان في نصرة الدين وفي سبيل الوصول إلى الحق.

والدليل على ما أقوله من أمور:_

١. إن إطلاق لفظ النار على مثل هذا لا معنى مستعمل في القرآن كثيرا فمن ذلك قوله تعالى (كلا لينبذن في الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة) إذ أن النار التي تطلع على الأفئدة ليست إلا النار المعنوية كالهم والحزن والضيق والألم ونحو ذلك. ومنه أيضا قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) فها هو قد عد التفرق والشقاق والعداء الذي كان بين العرب نارا وإنه أنقذهم منها بنعمته عليهم بأخوة الإسلام. ومنه أيضا قوله تعالى (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار فها هو قد عد استحقاق العذاب نارا وقوله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا..إلخ) ليس المراد به أكل النار الحسية وإنما يراد به تمثيل أكل مال اليتيم ظلما بأكل النار الحقيقية إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدل على أن القرآن كثيرا ما يريد بلفظ النار أمورا أخرى غير النار الحسية المتقدة بالحطب والفحم ونحوه. وعليه فأي مانع من أن تكون نار إبراهيم من نوع النار المعنوية لا من نوع النار المتقدة بالحطب كما يقول المفسرون.

٢. إن هذه القصة التي ذكرها المفسرون التي تفيد أن نار إبراهيم كانت نارا حسية أو قدوها بالحطب ليست مستندة إلى حديث عن النبي (ص) أصلا وإنما هي منقولة عن مقاتل ومجاهد والسدى والمنهال ونحوهم وقول هؤلاء لا يصح أن يكن حجة.

٣. إن نفس هذه الآية تشعر بأن المراد بها نار أخرى حيث تقول (حرقوه وانثروا آلهتكم) أي أخذلوه وأنكروا عليه ما قام به نصرا لآلهتكم أي حرقوه بنصر آلهتكم وخذله. وحيث تقول أيضا (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) أي أن الله تعالى قد أطفأ نار تعذيبهم له وجعلها بردا وسلاما بإنجائه منهم إلى الأرض التي بارك فيها أي أنه تعالى أخرجه من أرض الشدة والعذاب والمشقات إلى أرض الخير والنعيم والبركات.

٤. إن نفس قصتهم التي ذكروها تشعر بما نقول أيضا حيث إنهم قالوا فيها أنه مكث في النار خمسين يوما (وقال لم أجد أياما أطيب عيشا منها) أي لكونه قد قضاها في سبيل نصرة الدين وإظهار الحق على باطل المشركين وفي سبيل هدايتهم إلى توحيد الله تعالى، ولا شك أن أطيب وأنعم أيام الأنبياء هي الأيام التي يقضونها في ذلك

ويتلذذون ويتنعمون بها مهما حصل لهم فيها من المشقات والآلام كما قال عليه الصلاة والسلام "لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم"

وليس المعنى كما يقول المفسرون من أن الأيام التي قضاها وهو في وسط النار المتقدة عليه بالحطب أطيب من غيرها لأن ذلك غير معقول ولا مقبول. وبالجملة فإن هذا التفسير أقرب للعقل ولمعنى الآيات والأحاديث،وانسب بوظيفة الأنبياء والمرسلين التي هي تحمل نار المشقات وعذاب المتاعب في سبل هداية البشر إلى الله تعالى. وعلى هذا التفسير لا تكون هذه النار مخصوصة بإبراهيم من حيث الحقيقة والمعنى، وإن كانت مخصوصة به من حيث التعبير باللفظ، لأن التعبير يختلف باختلاف الأزمان والأحوال والمقاصد والأغراض والاستعارة والمجاز. فالحقيقة موجودة مع جميع الأنبياء والمعنى متحقق في جميع الرسل إلا أنه قد يختلف التعبير عنها كما وضحنا ذلك في غير هذا الموضع وعلى كل فالله اعلم بمراده.